شر البلية ما يضحك

أجد هذا الذى ترويه الأنباء أم هزل، إنه فى الواقع لا جد ولا هزل، فهو استخفاف بعقول المصريين والسودانيين وازدراء لشعور أهل الوادى أجمعين، وهو تمثيل سمج غير مقبول، أو كما قالت الصحف المصرية بحق مسرحية لا تقبلها العقول.. فالإخراج غير محبوك، والأدوار مفككة مهلهلة، والممثلون لا يعرفون أصول الفن، والمختبئون فى الكواليس ظاهرون للنظارة، والرواية كلها سخيفة، وسخفها مكشوف، وموضوعها معروف، ويراد من هل الوادى أن يصدقوا الأنباء، ويؤمنوا بأن هناك خلافًا فى الآراء، بين سعادة السفير البريطانى من ناحية وحاكم عام السودان من الناحية الأخرى، ويزيد المخرج فى التهريج فيضم إلى القصة أنَّ مستر إيدن وزير خارجية إنجلترا واقع فى حيرة بين الطرفين. إذ يجهد نفسه ليجد حلًا وسطًا بين الرأيين، وإلى جانب ذلك تذيع الأنباء أنَّ الوسطاء الأمريكان يقترحون اعترافًا رمزيًا باللقب المطلوب لملك مصر والسودان.

أليس هذا كله مضحكًا، وشر البلية ما يضحك، ثم أليس من حق المواطنين أن يضحكوا ليرفهوا عن أنفسهم قليلًا فى وسط محنتهم.

أفهم أن يختلف السفير والحاكم على أمر يتصل باختصاص كل منهما فيوفق وزير الخارجية بين الطرفين، لكن كيف يقع الخلاف عن سياسة الدولة العليا وهى التى تأمر وعلى هذين الموظفين الطاعة والتنفيذ.

ترى هل يتوهم الإنجليز أنَّ المصريين من البلاهة إلى حد أن يصدقوا أنَّ دستور السودان الجديد نبت إبان المحادثات هكذا عفوًا بإرادة الحاكم العام وحده؟

إنَّ الناس يفهمون أنَّ عرض دستور السودان الجديد كان بأمر من الحكومة الإنجليزية والقول بغير ذلك امتهان للعقول.

والناس يفهمون أنَّ الذين يعقدون الأمور ليس هو السفير فى مصر ولا هو الحاكم فى الخرطوم، بل إنهم هم أولئك الاستعماريون الذين يعيشون ولا يزالون يعيشون بعقلية القرون الماضية ويسيطرون فى لندن على شئون أمم استذلوها ولكنها لن تذل.

هل يتوهم الإنجليز أننا من السذاجة إلى حد أن نعتقد أنهم راغبون جديًا وبإخلاص فى حل القضية المصرية، وأنهم صادقون فيما يرددونه أحيانًا من رغبة فى فض الخلاف، وأنَّ مشكلة السودان هى العقدة أو الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات أو تتعثر عندها المحادثات.

لعلَّ من الخير أن أضع تحت أنظار حضرات القراء عبارة قالها سعادة السفير البريطاني فى جلسة 26 أغسطس من العام الماضى أثناء محادثاته مع سعادة وزير خارجية مصر الدكتور صلاح الدين باشا «ليس لبريطانيا مصلحة اقتصادية أو استراتيجية فى السودان، وهى لا تهتم إذا كان مصر والسودان بلدًا واحدًا أو لا، والواقع أنه لا يمكن لأحد أن يفصل السودان عن مصر لأنه لا يمكن لبلدين يعيشان على نهر واحد أن ينفصلا إلا إذا أتى المصريون أنفسهم بعملٍ يثير عداء السودانيين».

هكذا كلام سعادة السفير البريطانى واضح صريح لا لبس فيه ولا غموض، وارد بالحرف الواحد فى الصفحة 103 من الكتاب الأخضر.

لقد كان هذا الكلام يقال عندما كان العسكريون الإنجليز من أمثال الفيلد مارشال سليم يتحدثون عن «سد الفراغ» وعن الصعوبات التى تعترض الجلاء فى زعمهم، ففى هذا الوقت لم يكن هناك بأس من كلمة طيبة تقال عن السودان يحاول بها الإنجليز أن يخدعوا مصر لتظن أو تتوهم أنهم جادون.

فلما أصبح الجلاء واجبًا بالنسبة إليهم بعد أن أيقنوا مما حدث فى منطقة القناة أنَّ الاحتفاظ بها فى حوزتهم أمر عسير تكتنفه مصاعب لا سبيل لتذليلها وأنهم إذا أصروا على عنادهم، فلابد لهم من إبقاء قوات كبيرة تكلف دولتهم نفقات باهظة وأنه لابد لهم من الاعتماد على أنفسهم فى خدمة أنفسهم وفى تموينهم بدأوا يبدون أو يتظاهرون ببعض المرونة فى أمر الجلاء، ولكنها مرونة ظاهرية كاذبة بدليل أنهم هم الذين خلقوا مشكلة دستور السودان عن عمد ليفسدوا جو المحادثات لأنهم لا يريدون أن ينتهوا على أية صورة من الصور، فبالأمس كما روينا أبدى سعادة السفير البريطانى شيئًا من المرونة فى شأن السودان فى الوقت الذى تشدد فيه العسكريون فى أمر الجلاء، لكن إلى جانب ذلك تخلق مشكلة تقديم الدستور الجديد للسودان فتوضع فى سبيل المحادثات عن عمدٍ وسبق إصرار عقبات وعقبات.

والخلاصة أنَّ الإنجليز قوم غير جادين معنا، ويجب أن نؤمن بهذا عن يقين وأن نواجههم كما كنا متحدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).